

المقدس، مفهومه و تجلياته

الدكتور محمد سعيدي

قسم الثقافة الشعبية جامعة تلمسان -

المقدمة

نسعى في هذه الدراسة إلى تحديد الإطار المعرفي والموضوعاتي للمقدس من خلال عدد من الطقوس والممارسات الدينية الشعبية.

انطلقنا من فرضية عامة وشاملة تمثلت في تلك العودة القوية للذات الشعبية إلى فعل اتصالي تواصلتي مستمر وثابت مع مقدساتها المادية والمعنوية في السنوات الأخيرة من حياة المجتمع.

لقد اقترنت هذه العودة بعدد من الممارسات الثقافية والاجتماعية والنفسية والأيدولوجية والعقائدية والتي باتت تمثل لدى الجماعات الشعبية عنوان انتمائها وقوة عقيدتها وصيانة كيانها وذاتها كزيارة الأولياء والأضرحة وإقامة المواسيم والوعادات، والاحتفاليات الدينية المختلفة كالمولد النبوي، عيد عاشوراء، العيدين، الفطر والأضحى، والطقوس السحرية المختلفة والمعتقدات الشعبية والعادات والتقاليد والفنون... وقد يبرز هذا التوجه السالم والمستسلم للذات الشعبية نحو طقوسها ومقدساتها بصورة حلية، لأن شعورها أو لاشعورها النفسي والاجتماعي والثقافي والعقائدي والأيدولوجي والاقتصادي يمكن أن يستقطبها المقدس بعظمته وبأكبريته ويسيرها وفق أطر تتماشى والبنية الروحية الجماعية. كما أن هذين القطبين للذات

الإنسانية - الشعور أو اللاشعور - يسكنهما خوف ورعب من المجهول، الغائب المختفي، وبالتالي يعلنان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة انتماءهما إلى الدائرة المقدسة التي تضمن لهما الأمن والاستقرار وتلهمهما القوة والحياة.

نسعى في هذه الدراسة إلى مساءلة عدد من العناصر المشككة للمقدس الشعبي، وذلك بغية ضبط الميكانيزمات المادية والمعنوية الممكن أن تحرك المشهد العقائدي الشعبي في تجلياته أو في إخفاءه. إن الطقوس والممارسات الدينية الشعبية هي أولا وقبل كل شيء محطات عبور **Rites de Passage** للذات الشعبية من حالة لا توازن إلى حالة توازن ممكن، ومن وضعية حسنة محتملة ومرحاة (علاج، إفراج...)، ومن زمن دنيوي اجتماعي مدنس إلى زمن ديني مقدس، فالذات الشعبية تمارس طقوسها من أجل البحث عن الأمن والاستقرار والخلاص من المندسات الدنيوية المادية والمعنوية.

نعتبر الطقوس والممارسات الدينية الشعبية وقفات تفقها الذات الشعبية من أجل تفعيل محيطها المادي والمعنوي تفعيلا طقوسيا مقدسا. فهي تُعدّي نفسها غذاء روحيا طقوسيا مقدسا، وذلك صيانة لذاتها ولكينونتها ولملتكاتهما من برائين المدنس الشيطاني. فالذات الشعبية تعمل دوما وأبدا من أجل "العيش أبعد ما يمكن في القدسي أو في صميم الأشياء المقدسة... فالقدسي يساوي القدرة، وفي النهاية، يساوي الحقيقة بامتياز، فالقدسي مشبع بالكائن، والقدرة المقدسة تعني في نفس الوقت الحقيقة والديمومة والفعالية، ويتجزم التضاد بين القدسي والدنيوي غالبا بالتضاد بين الحقيقي وغير الحقيقي أو الزائف" 1. انطلاقا مما سبق، نسعى إلى إبراز بعض المعالم المعرفية والموضوعاتية التي ساهمت في تحديد

فضاء المقدس الشعبي. وقد رسمنا لهذه الدراسة التصميم التالي:

1- مفهوم المقدس.

2- تجلياته وحقوقه.

1- مفهوم المقدس:

جاء في لسان العرب في مادة قدس ما يلي:

"قدس - التقديس: تنزيه الله عز وجل، وفي التهذيب القدس، تنزيه الله تعالى، وهو المتقدس، القدوس، المقدس، ويقال القدوس فعول من القدس وهو الطهارة... والتقدیس، التطهير والتبريك، وتقدس أي تطهر وفي التنزيل: { ونحن نسيح بحمدك ونقدس لك } ، معنى ذلك أن نطهر أنفسنا لك وكذلك نفعل بمن أطاعك، نقدسه أي نطهره ومن هذا قيل للسطل ، القدس، لأنه يتقدس منه أي يتطهر... وجاء في التفسير أنه المبارك والقدوس هو الله عز وجل والقدس البركة... الأرض المقدسة الطاهرة... أرض مقدسة أي مباركة." 2

تكاد كل قواميس اللغة العربية قديمها أو حديثها لا تخرج عن هذا الإطار التعريفي لمفهوم المقدس العام والشامل الذي أتى به ابن منظور. فالتعريفات المختلفة لهذا المفهوم، بالرغم من اتساع مساحتها اللغوية واختلافها، فإنها تلتقي في ثلاثة محاور دلالية للمقدس وهي الطهارة، التنزيه، التبرك. ونذكر في هذا الصدد من باب التمثيل ذلك التعريف الذي ذكره سميع عاطف لمفهوم المقدس إذ يقول: "التقديس هو التطهير الإلهي - يقدر لك أي تطهر الأشياء ارتساماً لك - روح القدس، يعنى به جبريل من حيث أنه ينزل بالقدس من الله أي بما يطهر به نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي، والبيت المقدس هو المطهر من النجاسة أي الشرك".³

فالمقدس هو الله، هو الطهارة، هو البركة، هو التنزيه. فهو لا يخرج عن الفضاء الديني والذي يشكل منبعه ومنشأه الأول والأصلي والأصيل بامتياز، وفيه تتجلى الذات الإلهية. فقد يتجلى الله في كل ممارسة مقدسة طقوسية يقوم بها أو يؤديها الإنسان المتدين كما قد يتجلى الله في المكان المقدس، وفي الزمان المقدس، كما قد يتجلى بالنسبة للإنسان المؤمن في الأشياء المقدسة وفي النباتات المقدسة وفي الحيوانات وفي الطبيعة والأنهار والوديان والجبال والحجارة...

لقد عكّدت تجليات المقدس المختلفة عملية تحديد فضاءاته، فكما يقول مرسيا إلياد: "إن كل شيء مرشح لأن يرقى إلى درجة التقديس، الإنسان، الزمان، المكان، الحيوان، النبات، الجماد، الأفعال، كل هذه العناصر قد تنخرط بصورة أو بأخرى في فضاء المقدس وتصبح مقدسة".⁴

ويذكرنا قول مارسيا إلياد بقول الشيخ أبي الحسن علي الحسيني النووي في حديثه عن التجليات الطقوسية للإله التي كانت شائعة ومنتشرة بصورة عجيبة وغريبة في الديانات الوثنية القديمة حيث يقول: "هناك أشخاص تمثل الله فيهم، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله... ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك..."⁵

فالمقدس لا تحده حدود، فهو حاضر دوماً وأبداً، وأن الإنسان المتدين لا يقدر على العيش بدون أن يصنع مقدساته.

أشرنا سابقاً أن هناك عدداً من العناصر ظلت مقدسة في المخيال الشعبي، وتعامل معها الإنسان تعاملًا طقوسياً خاصاً ومميزاً، فقدسها واحترمها وحافظ على قدسيتها حباً وخوفاً منها في نفس الوقت. وفي اعتقادنا أن أهم هذه العناصر التي شكلت وساهمت في تفعيل المشهد الطقوسي المقدس عند الإنسان المتدين نذكر عنصري الزمان والمكان.

1. الزمان المقدس

نقول ونردد دائماً أن الدهر - الزمان - هو الله كما نردد دوماً وأبداً قول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لا تسبوا الدهر، فإن الدهر هو الله ". فالزمان هو الله، وتقديس الزمن بكل أنواعه وفروعه وأوجهه هو محطة عبودية عقائدية تقودنا إلى الله.

غير أن هناك أزمنة احتلت مكانة ومكاناً خاصاً في مخيال الإنسان المتدين حيث صنع لها أجنحة - مذكرة - لا يمكنها أن تمر عليه بصمت ولا يمكنه أن يفوت الفرصة دون أن يستثمر مرورها عقائدياً. فهو يحسب مقدساته وينتظرها، بل ويحضر لها ويحضر نفسه لاستقبالها والاحتفال بها وكأنها جزء لا يتجزأ من الفعل الديني.

ولعل ما يُغذي فكر الإنسان المتدين من أجل العناية بهذه الأزمنة عناية طقوسية، أن هذه الأزمنة تحدث عنها الديانات المختلفة. وأقدس هذه الديانات، الديانة الإسلامية حيث ورد في القرآن الكريم ذكر عدد من هذه الأزمنة وذلك لكونها محطات احتوت وشهدت أحداثاً جليلاً ومقدسة، أو لأن الله سبحانه وتعالى اختارها واختار فضّل ما تؤدّى فيها من عبادات وأن ثمن أجرها أعظم... ومن هذه الأزمنة المقدسة التي جاء ذكرها في القرآن أو الأحاديث النبوية الشريفة والتي عملت الذاكرة الشعبية على تعظيمها وتقديسها والاحتفال بها نذكر شهر رمضان، ليلة القدر، يوم الجمعة... ولقد لخص صاحب الدر المنثور، السر والحكمة المقدستين لبعض الأزمنة وفضلها عند الله حيث يقول: " اختار الله الزمان، فأحب الزمان إلى الله الأشهر الحرم، وأحب الأشهر إلى الله ذو الحجة وأحب ذو

الحجة إلى الله العشرة الأوائل منه، واختار الله الأيام، فأحب الأيام إلى الله يوم الجمعة، وأحب الليالي إلى الله ليلة القدر، واختار الله ساعات الليل والنهار، فأحب الساعات إلى الله ساعات الصلوات المكتوبات "6.

فضل الله سبحانه وتعالى عددا من الأزمنة وذلك لما عرفته واحتوته من أحداث كان لها أعظم الآثار على الذات الإسلامية. لقد ظلت هذه الأزمنة والتي تحولت في مخيال الرجل الديني أعيادا شاهدة على أحداث وممارسات طقوسية مقدسة كان الفعل الديني حاضرا فيها وغيرها سواء أثناء التأسيس أو في معركة التفعيل المقدسي.

إن تعلق الإنسان الديني بهذه الأزمنة - الأعياد - يترجم رغبة العبور التي يأمل في تحقيقها " وهو آمن من الأخطار من الزمان الدنيوي إلى الزمان المقدس "7.

ولعل ما يمكن الإشارة إليه والوقوف عنده من حيث تحديد ماهية ووظيفة الزمن المقدس في المخيال الديني أنه زمن " قابل للاسترجاع بمعنى أنه زمن مطيقي (أسطوري) بدئي قابل للضرورة في الحاضر، كل عيد ديني، وكل زمن ليتورجي، وإنما يتكون من تحيين لحدث جرى في ماض مطيقي. "في البدء"، والمشاركة الدينية في عيد من الأعياد تنطوي على الخروج من الزمن الدنيوي العادي بغية استرجاع الزمن المطيقي الذي يجنيه العبد بالذات، يترتب على ذلك أن الزمن المقدس قابل للاستعادة والتكرار بلا حدود. "8

إن علاقة الرجل الديني بالزمن المقدس ثابتة بثبوت عقيدته، وقوية بقوة إيمانه بالله، حيث أنه تمضي الساعات، والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنون والإنسان الديني متمسك بزمنه المقدس، يعرفه، يحسب له، ينتظره، يحضر له، يحتفل به، بنفس المنطق الطقوسي. فالزمن المقدس ثابت في أجنحة مخيال الإنسان الديني، ويشكل معلما ثابتا وأساسيا من المعالم الدينية، فهو جزء لا يتجزأ من الذات الدينية الشاملة. "فالزمن لا يتغير ولا ينفذ، في كل عيد دوري يكون استرجاع لنفس الزمن المقدس، الزمان الذي تجلى في عيد السنة الماضية أوفي العيد الذي انقضى عليه قرن كامل، وهو

الزمان الذي خلقتة وقدّسته الآلهة عندما ابتدرته أول مرة، وهي نفس المبادرة التي تتحين في العيد، بعبارة أخرى، يكون في العيد استرجاع لأول ظهور من الزمان المقدس كما حدث في الأصل".⁹

إن تمسك الإنسان الديني بالزمن المقدس هو إعلان ديني طقوسي عن رغبته القوية والأكيدة للانضمام إلى الفعل الإلهي المقدس. فهو يحتفل بل يتعبد احتفاليا ويحتفل عبادة ليعلن حضوره في الزمن الديني بامتياز، يحترم ويقدم موافقت الصلاة، يحترم ويقدم توارخ الأحداث والمناسك، ويحتفل بالأعياد وفق أطر دينية طقوسية مقدّسة. يحتفل بها من أجل التقرب من الله وقد يحس نفسه في حاجة ماسة إلى الانغماس دوريا في هذا الزمان المقدس الذي لا يمكن تحطيمه، وعنده (أي الإنسان الديني) إن الزمان المقدس هو الذي يجعل من الزمن الآخر العادي، أي الزمان الدنيوي الذي يجري فيه كل الوجود البشري أمرا ممكنا، وهو الحاضر الأزلي الذي يجري فيه الحدث المطيقي، الحاضر الذي جعل من الزمان الدنيوي الذي تجري فيه الحوادث التاريخية أمرا ممكنا.¹⁰

2. المكان المقدس

كما قدس الرجل الديني عددا من الأزمنة، فلقد قدس أيضا عددا من الأماكن والتي أصبح لاسمها مكانة ومكانا بارزين في المخيال الديني الذي يسعى دوما وأبدا إلى أن يؤسس لقياس بعض الأماكن تبريرات تقاطعت دلالتها بين الديني الخالص والأسطوري العقائدي، " فثمة عدد كبير من العقائد والأساطير والطقوس المختلفة... تتيح لنا فهم الدور الذي يلعبه المكان المقدس في حياة المجتمعات التقليدية بصرف النظر عن المظهر الخاص الذي قد يتخذه: مكان مقدس، بيت عبادة، مدينة، وإنما لنجد رمزية مكان العالم في كل مكان... لنبدأ بمثال يبيّن لنا رأسا ما تتصف به هذه الرمزية من تماسك وتعقيد، وأعني بها رمزية - الجبل الكوني - رأينا أن الجبل يندرج في جملة الصور التي تعبر عن الصلة بين السماء والأرض، وإنما لنجد كثير من الثقافات تحكي لنا عن جبال أسطورية أو واقعية، تقع في مركز العالم... وبما أن الجبل المقدس هو محور العالم الذي يصل الأرض بالسماء، فهو يلامس السماء، وتتعين فيه أعلى نقطة في العالم... وينقل المأثور الإسلامي أن أعلى مكان على وجه الأرض هو الكعبة، لأن نجم القطب يدل على أنها تقع أمام مركز السماء.¹¹

تتجلى قدسية المكان في مخيال الإنسان الديني في تلك الوظيفة التي ألهمه الله إياها وعمل هذا الإنسان الديني على استثمارها عقائديا تقريبا إلى الذات الإلهية... فالمكان المقدس يحتوي أفعالا ويكسبها طابعا طقوسيا كما قد يشكل للإنسان الديني قناة من القنوات الطاهرة التي يمر عبرها للوصول إلى الله. فالمكان مكانان: مكان عادي، دنيوي، للسكن، للعمل، للجلوس، ومكان مقدس للعبادة وللشعائر الدينية، ومن ثمة، فإنه يدخل ضمن المجموعة [المكنية المقدسة] فهي قوية وهامة مقارنة مع الأمكنة الأخرى الدنيوية التي لا تتصف بالقدسية وبالتالي لا بنية لها ولا تماسك. بكلمة واحدة عديمة الشكل، ثم، عند الإنسان الديني، يترجم هذا اللاتجانس المكاني، اختبار التضاد بين المكان القدسي، الذي هو وحده الحقيقي، الموجود حقا وبين سائر الأمكنة الأخرى التي تشكل الامتداد غير المتشكل الذي يحيط به." 12

ارتبط فعل تقديس المكان لدى الإنسان الديني بفكرة جوهرية أن حضوره في هذا المكان والتعبد فيه وإقامة الشعائر فيه يشكل تأشيرة روحية تؤهل للوصول إلى الذات الإلهية. فهي تلهم هذا الإنسان الضعيف القوة والقدرة من أجل الانطلاق نحو السماء. فهو المادة والشكل ليصنع منهما مركبا للصعود نحو الله. " فكل مكان مقدس ينطوي على تجل مقدس، عن تفجر للقدسي، ينتج عنه انفصال إقليم عن محيطه الكوني، فيجعله مختلفا عنه نوعيا." 13

فالأماكن المقدسة، قد اكتسبت قدسيتها إما بدعوة إلهية صريحة وعلانية أو بدعوة طقوسية صنعها لها الإنسان الديني وذلك لما يقوم به في رحابها من طقوس وممارسات دينية. حيث أنه " لكي يتقدس مكان، لا يحتاج الأمر في أغلب الأحوال إلى تجل إلهي أو ظهور قدسي بالمعنى الدقيق للكلمة، تكفي أية... أو علامة من أي نوع حتى تدل على قدسيته." 14

فالحديث عن الأماكن المقدسة يؤدي بنا إلى مساءلة كل فعل ديني يقوم به الإنسان الديني، مهما كان مستواه ومهما كانت عقيدته، فالمكان المقدس سواء أكان كبيرا بحجم الكعبة، أو بيت المقدس أو المسجد الحرام أو كان صغيرا بحجم مساجد المعمورة أو أماكن المعمورة أو الزوايا والأضرحة

أو أماكن أخرى قدسها الإنسان الديني، فهي تبقى في شموليتها جزءاً لا يتجزأ من الفعل الديني الذي يقرب الإنسان من الذات الإلهية، حيث يزورها تكريماً وإجلالاً، ويمارس فيها عبادته بدون هوادة ولا انقطاع. وقد يعاني ويتعب من أجل الوصول إليها إن كانت بعيدة. كما قد يخافها ويخشى أذاها أي إنسان ديني مهما كان مستواه، حتى وإن كان في مستوى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قولته الشهيرة تعظيماً لمكة المكرمة وتقديساً واحتراماً لها حيث يقول: "لأن أخطئ سبعين خطيئة مزيكية أحب إلي من أن أخطئ خطيئة واحدة بمكة."¹⁵

الخاتمة

لا يمكن الاعتقاد أن البحث في المقدس عملية سهلة وبسيطة، فهي مغامرة صعبة وشائكة. وفي اعتقادنا أن صعوبتها تتمثل بدون أدنى شك في تحديد مفهوم المقدس وأهم تجلياته وكذا فضاءاته المختلفة.

فالمقدس مصطلح غامض كما يقول روجي كالوا Roger Caillois كما أنه أيضا مصطلح عائم على حد تعبير كلود ليفي ستراوس C.L. Strauss. فهو مصطلح يسافر من فضاء إلى فضاء آخر وفق أطر دينية وأيديولوجية وثقافية واقتصادية، فلكل فضاء مقدسه أو مقدساته يسيرها وفق منطقها الخاص. وقد أحس الأستاذ جوزيف شلهود بصعوبة فهم وتحديد معاني وفضاءات مصطلح المقدس. فقد لاحظ أنه مصطلح غير مستقر على دلالة ثابتة، يحركه المخيال المعرفي عبر عدد من المستويات المادية والمعنوية تؤهله للبحث عن الغائب والمجهول وذلك لا لشيء إلا من أجل الوصول إلى الله... فالمقدس هو الإلهي، هو الديني بامتياز، سواء أكان مصدره الديانة العاملة أو الخاضعة لأوامر الله ونواهيها كما نص عليها في الكتاب المقدس أو كان مصدره الديانة الشعبية الخاضعة لمنطق الثقافة الشعبية ومظاهرها الاعتقادية من سحر وطقوس وأضرحة ومواسم ووعادات...

تفرض دراسة المقدس على الباحث طاقات معرفية كبيرة ومتعددة المصادر والمعالم من دين وفقه وتاريخ وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الإنسان. فالباحث مرشح للنزول إلى الميدان ومتابعة

مادته وموضوعه عبر عدد من المحطات الثقافية والاجتماعية وفي فضاءات جغرافية مختلفة وفي أزمنة مختلفة...

إن البحث في المقدس هو أيضا بحث في الحقيقة أو "الحقيقي والواقعي بامتياز، وهو في الوقت نفسه القدرة والفعالية وينبوعا للحياة والخصوبة، إن توق الإنسان الديني إلى العيش في القدسي يضاهي في الحقيقة توقه إلى إقامة نفسه في الواقع الموضوعي، وأن لا يدع نفسه مشلولاً في نسبة ما لا نهاية له من الاختبارات الذاتية صرفاً، بل أن يعيش في عالم واقعي، فعّال، لا في وهم." 16

وفي الأخير نقول إن البحث في المقدس هو أصلاً البحث في موضوع الإنسان الديني الذي يسعى دوماً وأبداً إلى الوصول إلى الذات الإلهية.

الهوامش :

- 1- مرسيا إلباد
- 2- ابن منظور : لسان العرب - دار صادر-ج.6 بيروت - مادة : قدس
- 3- سميع عاطف : مجمعه بيان الحديث، تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم - الشركة العالمية للكتاب - دار الكتاب العالمي - بيروت 1994 ص 691

- 4- مرسيا إلياد : المرجع السابق ص
- 5- أبو الحس علي الحسني النووي : ماذا خسر العالم بأخطا المسلمين - دار الشهاب - باتنة - الجزائر - ط.2. 1987 ص 69
- 6- جلال الدين السيوطي : الدر المنثور في تفسير المأثور - دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع - بيروت ط.1- 1983 - ج.4 ص 187
- 7- مرسيا إلياد : المرجع السابق ص 67
- 8- المرجع نفسه : ص 68
- 9- المرجع نفسه : ص 68
- 10- المرجع نفسه : ص 85
- 11- المرجع نفسه : ص 39
- 12- المرجع نفسه : ص 23
- 13- مرسيا إلياد : المرجع السابق : ص 28
- 14- المرجع نفسه : ص 28
- 15- جلال الدين السيوطي : المصدر السابق ج 1 ص 302
- 16- مرسيا إلياد : المرجع نفسه ص 30